جولة مع تراثنا اللغوى
وبعض من حفظوه

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

إذا قلنا (تراثنا اللغوى) فقد يعنى ذلك تلك الثروة اللغوية اللفظية التى وصلت إلينا عن طريق المعجمات اللغوية اللفظية التى انتهت إلينا ، بدءا من كتاب (العين) للخليل ابن أحمد ت سنة ١٨٠ هـ ، ومرورا بكتاب البارع لأبى على القالى ت ٣٥٦ هـ ، فالتهذيب للأزهرى ت سنة ٣٧٠ هـ ، فالمحكم لابن سيده ت سنة ٤٥٨ هـ ، فالجمهرة لابن دريد ت سنة ٣٢١ هـ ، فالمجمل لابن فارس ت ٣٩٥ هـ ، فالصحاح للجوهرى ت فى حدود ٤٠٠ هـ فالتكملة والذيل والصلة ، والعباب للصاغانى ت ٦٥٠ هـ ، فلسان العرب لابن منظور الأفريقى المصرى ت ٧١١ هـ ، فالقاموس المحيط للفيروزابادى ت ٨١٧ هـ . فتاج العروس للزبيدى ت ١٢٠٥ هـ ، فالمعيار لميرزا محمد على الشيرازى ت بعد ١٢٧٣ هـ ، فأقرب الموارد للشرتونى ت سنة ١٩١٢ م . فالبستان للشيخ عبد الله البستانى ت ١٩٣٠ م ، وانتهاء بالمعجمين الوسيط والوجيز لمجمع اللغة العربية القاهرى ، فالمعجم الكبير الذى تعمل لجنته فى جمع مادته وإعداده ، وندعو الله أن يبارك فى أعمارنا جميعا لنراه ، أو يراه أبناؤنا وحفدتنا فى جزئه الأخير .

نعم ! فقد يعنى (التراث اللغوى) كل هذه المعجمات وأشباهها من عشرات المصنفات المعجمية اللغوية التى لم نذكرها ، ولا أظن المجال يتسع لذكرها هنا . ولكن فى الحق أنه كانت هناك قبل حركة تدوين اللغة عن طريق « المعجمات اللفظية » حركة أخرى قام بها الرواة منذ بداية القرن الثانى الهجرى لرواية أخبار العرب وأشعارهم وعلومهم ومأثور أقوالهم وخطبهم . فكان ذلك بداية لجمع اللغة العربية بمأثوراتها المختلفة فى الشعر والنثر على السواء .

والحق أن حركة الرواية والجمع هذه تعد الباكورة الأولى للرصيد اللغوى الضخم الذى ظل ينتقل إلينا متضخما ، بدءا من العين والجمهرة والصحاح ، حتى بلغ تلك الحصيلة الهائلة التى رصدتها بالتدوين معجمات ضخمة انصبت فى (لسان العرب) أولا ، و (فى القاموس المحيط) ثانيا ، وفى

(*) ألقى البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ١٠ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢ م .

(تاج العروس) بعد ذلك .ومن الإنصاف أن نعد (الرواة) من جماعة اللغويين الذين حفظوا لنا التراث اللغوى،بل الحق أنهم يأتون على قمة اللغويين ، لأنهم هم الذين هيأوا لهم مادة عظيمة للتدوين اللفظى فى المعجمات . وماهذه المجموعات الصغيرة التى يشتمل كل منها على ألفاظ موضوع بعينه إلا النواة الأولى للتصنيف اللغوى المتخصص الموضوع،لا على أساس أحرف معينة كحروف الحلق ، أو على أساس ترتيب حروف الكلمة من بدايتها أو من نهايتها ، بل على أساس موضوعى معنوى بحت . فقد ألف الأصمعى ت ٢١٤ هـ رسائل أو مجموعات صغيرة فى موضوعات مختلفة كانت لها تلك الرسائل شبه معجمات موضوعية . وهل ننسى من كتب الأصمعى فى هذا الباب : كتاب الخيل ، وكتاب الشاء ، وكتاب الإبل ، وكتاب النخل والكرم ؟ وله فى هذا المجال بضعة عشر كتابا طبعت فى بيروت أو فى فينا منذ قرن من الزمان . فكتاب النخل —مثلا— ليس فى موضوع زراعته ومواسمه وعلاج أمراضه، ولكنه يمد القارىء برصيد لغوى فى أسماء النخل وصغازه وأجزائه من علق وسعف، وكرب،وكرانيف، وطلع، وجماروغيرها. وكذلك بقية هذه الكتب ، تتصل بألفاظ موضوعاتها ، ولاتتصل بدراسة الموضوعات ذاتها. وتعد بداية الأصمعى ونظرائه من الرواة الأولين فى مثل هذه الرسائل اللغوية بداية تصنيف المعجمات الموضوعية التى مازالت تنمو وتتطور ، وتتضخم ، حتى بلغت كتاب (التلخيص فى أسماء الأشياء) لأبى هلال العسكرى المطبوع فى دمشق بعناية مجمع الشام شقيق مجمعنا ، وانتهت إلى كتاب (المخصص) لابن سيده ، ويعد أضخم وأوسع معجم للمعانى والموضوعات . وقد رزق (المخصص) حظا غير قليل حين هذبه اثنان من خيار سلفنا فى دار العلوم ، وكان أحدهما عضوا بمجمعنا هذا ، وأسمياه (الإفصاح) فوفقا فى التلخيص والتهذيب ، وزادا على ابن سيده بالمراجعة والمقابلة والتحقيق . وفرق مابين المعجمات اللغوية ومعجمات المعانى والموضوعات ، كالمخصص والإفصاح — أننا فى الأولى نبحث عن معنى لفظة موجودة تحتاج إلى شرح غريبها، أما فى الثانية فنحن نبحث عن لفظ حين يحضرنا معنى مراد .

ويتصل بموضوع تراثنا اللغوى — وإن كان لا يدخل فى باب المعجمات اللغوية — كتب (النوادر) فى اللغة . وتشتمل على ما ندر استعماله من الألفاظ ودلالاتها. وعند صاحب (اللسان) أن نوادر الكلام هى ما شذ وخرج من الجمهور، وقد وضع اللغويون قاعدة فى معنى النادر ، وتقنين مرتبته فى الفصاحة . وعبر عن ذلك ابن هشام بقوله: (اعلم أنهم يستعملون : غالبا، وكثيرا،ونادرًا،وقليلا، ومطردا،ومهما يكن من خلاف بين رجال

اللغة على تحديد معنى « النادر» فإن كتب (النوادر) كثيرة أوفت على الخمسين كتابا ابتداء من أبي عمرو بن العلاء ، ت ١٥٤ ه ومرورا بالكسائى ت ١٨٩ ه، وابن الأعرابى ت ٢٣١ه ، وابن جنى ت ٣٩٢ه ، والقالى صاحب الأمالى ت ٣٥٦ ه ، وانتهاء بصاعد الأندلسى ت ٤١٠ ه، وقد رزق كتاب النوادر لأبى مسحل حظا عظيما حين أصدره مجمع دمشق فى جزئين كبيرين بتحقيق الدكتور عزة حسن .

واتجه فى الوقت نفسه جماعة من اللغويين الرواة إلى تحديد (الفروق) الدقيقة بين معانى الألفاظ ، مع اختلاف الألفاظ تبعا لاختلاف المعانى الواردة على شىء واحد، كالفرق بين البشرة والأدمة فى جلد الأنسان، فالبشرة لظاهر الجلد. والأدمة لباطنه، وكالفرق بين الوفرة واللمة ، فالوفرة الشعرة إلى شحمة الأذن ، فإذا ألمت بالمنكب فهى لمة، وكالفرق فى الضروغ ، فالثدى للمرأة ، والضرع لكل ذات ظلف، والخلف لكل ذات خف، والطبى للسباع وذوات الحافر. وكان الأصمعى من أقدم المصنفين فى كتب الفروق ، وكتابه مطبوع بالنمسا. ثم جاء ابن قتيبة ت ٢٧٦ ه فأودع كتابه (أدب الكاتب) أبوابا فى الفروق، كالفروق فى خلق الإنسان ، وفى الأفواه وفى ريش الجناح ، وفى قوائم الحيوان ، وفى الأصوات وغيرها. وجاء أبو هلال العسكرى فصنف كتابه (الفروق اللغوية) ويقع فى ثلاثين بابا .

وقيض الله للغة جماعة من الحفظة والخزنة ، فقيدوا شوارد الألفاظ والتعبيرات فى مصنفات لا تدخل فى باب المعجمات ، حتى يجعلوها سهلة التناول والتداول، خدمة للأدباء، والكتاب والشعراء، ولينقلوها إلى مجال الاستعمال فى الكتابة والخطابة ، بتبويبها وفقا للمعانى السائرة ، والأمور الدائرة ، مع إصابة اللفظ للمعنى حتى يكون على قدره لا يخطئه بزيادة أو نقصان . كقولهم فى معنى (البرء): أفاق من الغشى ، وصح من العلة، وصحا من السكر ، واندمل من الجرح، وكقولهم فى ضروب المشى: الرجل يسعى ، والصبى يدرج ، والشيخ يدلف، والفرس يجرى ، والغراب يحجل ، والحية تنساب ، والعقرب تدب . كالذى فعله الثعالبى ت ٤٢٩ ه فى كتابه (فقه اللغة وسر العربية). وقريب من هذا الغرض ما صنعه عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى ت ٣٢٦ ه ، فقد لاحظ أن كتاب عصره لا يستطيعون تغيير معنى بغير لفظة لضيق وسعهم، وفقر محصولهم ، فصنف كتاب (الألفاظ الكتابية) ليمد المنشئين والمترسلين بفيض من المترادف والمتوارد فى جمل وجيزة تسعف الطالب بما يريده من اللفظ بأيسر

طريق، وأدنى لمح، مع غض النظر عن الفروق الدقيقة بين المترادفات : كقوله (شفيت صدر فلان من عدوه ، وبردت غليله ونقعت غلته وشفيت حرقته ، وأوريت حرته) وكقوله فى" باب مصالحة الزمان ، ومهادنة الأيام (سامح لهم الدهر ، وتغافل عليهم الزمادن ، وسالمتهم الأيام ، وساعدتهم الأعوام ، وهادنتهم صروف الزمان ، وعدلت عنهم الليالى ، وتنكبتهم ، وتعدتهم ، وتخطتهم)

وجاء اللغوى الشيخ إبراهيم اليازجى من أهل زماننا هذا ، فأعجبه كتاب الهمذانى ، ووافقته طريقته ، فزاد عليه ، ووسع فيه . وكثر فى أبوابه ، حتى استوى له من ذلك كتاب كبير فى جزئين ، أسماه (نجعة الرائد ، وشرعة الوارد) وقد لقى من الرواج والإقبال عليه ما أكد حاجة الكتاب فى ذلك الزمان ، إلى فيض من الإنشاء والبيان .

ولفت النظر عند بعض علمائنا وحفظة تراثنا اللغوى القدامى ورود كثرة كاثرة من الألفاظ العربية التى تقع على الشئ وضده ، والحق أن وقوع (الأضداد) فى اللغة شىء حير الباحثين ، وذهبوا فى تعليله مذاهب شتى . ولكنهم عدوه فى الواقع اللغوى . واتخذ الشعوبيون من هذه الظاهرة فى اللغة سببا للزراية على العرب ورميهم بنقصان الحكمة وقلة البلاغة ، والميل إلى الالتباس والتلبيس فى الكلام .

ولكن هذه الأحكام الجائرة على وقوع التضاد فى لغة الضاد لم تمنع اللغويين من تصنيف كتب فيه ، تكون ثروة قيمة فى تراثنا اللغوى . وبدأ التأليف فى (الأضداد) منذ بداية القرن الثالث الهجرى على يد (قطرب) ت ٢٠٦ هـ ، وتبعه جماعة على رأسهم الأصمعى ، والنوزى ت ٢٣٣ هـ ، وابن السكيت ت ٢٤٤ هـ وأبو حاتم السجستانى ت ٢٥٥ هـ وابن الأنبارى ت ٣٢٨ هـ ، وأبو الطيب عبد الواحد اللغوى ت ٣٥١ هـ ، وآخرهم الصاغانى ٦٥٠ هـ ، وهو صاحب (التكملة والذيل والصلة) التى نشرها مجمعنا القاهرى فى ستة أجزاء كبار على يد جماعة من محققينا الأفاضل .

وقد تأتى (الأضداد) فى المعجمات اللغوية العامة ، كالجمهرة ، والصحاح ، واللسان والقاموس المحيط ، فيكتب المعنيان المتضادان ويذكر بعدهما كلمة : « ضد » . ولكن إفراد هذه الأضداد بكتب مستقلة قائمة بذاتها هو شىء فيه مزيد اهتمام وتخصيص. وإذا كان اللغويون قد رتبوا الأضداد فى كتبهم الخاصة وفقا للمعانى والموضوعات ، فأن بعض من صنفوا فى الأضداد رتبوا كتبهم على حروف المعجم ترتيبا هجائيا . وكان أول من اتبع هذه الطريقة المعجمية المنظمة أبو الطيب عبد الواحد الحلبى اللغوى فى كتابه المشهور : (الأضداد فى كلام العرب) ، وإن كان لم يلتزمها التزاما

دقيقا فى الكتاب كله . ولعل مثالا واحدا صغيرا من أمثلة أضداد عبد الواحد يوضح لنا طريقته فى النقل عمن سبقوه من علماء اللغة . قال فى أول باب التاء : (قال أبوحاتم : التبيع الذى يتبع المرأة حيث كانت ، يتعشقها . والمرأة المتبوعة أيضا تبيع . وفى القرآن العظيم : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » . قال : أظنه : فاعلا . والله أعلم . وقال « قطرب » : التبيع المتبع والتبيع المتبع . وقال التوزى : التبيع التابع ، والتبيع المتبوع) .

ومن موضوعات التراث اللغوى التى لاتدخل فى المعجمات اللغوية ، ولكنها تدخل فى اختلاف المعانى باختلاف أبنية الكلام ، موضوعات اختلاف أبنيةالألفاظ واختلاف المعانى تبعا لذلك . وقد أفردت لها كتب مستقلة محررة فى كلام مرسل ، أو فى أراجيز تحصرها وتضبط بناءها ، كالذى فعله ابن مالك النحوى ت ٦٧٢ هـ فى كتابه المسمى (الأعلام ، بمثلث الكلام) ، وهو كله أرجوزة لغوية . ومن قوله فى تثليث الجيم ، من لفظة (جراء) :

شبيبة الجارية (الجراء)
لكن جروا جمعه (جراء)
وفائق فى الجرأة (الجراء)
ألحق بالعجيب والعجاب

ومن قوله فى تثليث الجيم من لفظة (جرة) :

واحدة من الجرار (جرة)
وكل ذى كرش له انسب (جرة)

ومن مصائد الظباء (الجرة)
يعنى بها قوم ذوو اكتساب

ويجرنا الحديث عن مثلث الكلام فى تراثنا اللغوى إلى الحديث عن نوعى المثنى الجاريين على الحقيقة والتغليب . فذلك موضوع لغوى مفيد طريف أفرد له المحبّى — صاحب خلاصة الأثر والمتوفى سنة ١١١١هـ — كتابا لغويا جليلا أسماه : (جنى الجنتين ، فى تمييز نوعى المثنيين) ، وراعى فى هذا الجمع بين التثنية على الحقيقة والتثنية على التغليب ، لكمال الارتباط بين الاثنين ، وإن كانا — فى الأكثر — يعدان من المتباينين . ومن كلامه فى المثنى على الحقيقة (الأخبثان : الغائط والبول . يقال : خبث الشىء خبثا ، وخباثة خلاف طاب فى المعنيين . قال : شىء خبيث أى نجس أو كريه الطعم والرائحة هذا هو الأصل ، ثم استعمل فى كل حرام . وفى القاموس : الأخبثان : البخر والسهر ، أو السهر والضجر أيضا . وفى لسان العرب عن : الأخبثان : القىء والسلاح[1] .

ومن كلام المحبى فى المثنى على التغليب : (الباكران : الصبح والمساء ، غلب الصبح

---

(١) السلاح بضم السين : السلح والنجو الرقيق .

لأنه هو الباكر فى الحقيقة، والأبوان : الأب والأم . والقمران : الشمس والقمر ، غلب لفظ القمر لخفته بالتذكير ، وإن كان الشمس أنور ، وهى أصل لنور القمر) .

ومن التعليقات والتعقيبات اللطيفة التى صادفتنا فى هذا الكتاب بخط العلامة اللغوى أحمد تيمور باشا ماكتبه بيده تعقيبا على كلمة « الأخبثان » التى سبق ذكرها : (قلت : والأخبثان : القلب واللسان من الإنسان . حكى أن لقمان كان أول نجابته أن أعطاه سيده شاة وقال له : اذبحها وائتنى بأطيب مافيها ، فأتاه منها بالقلب واللسان . ثم أعطاه شاة أخرى وقال له : اذبحها وائتنى بأخبث مافيها ، فأتاه أيضا بالقلب واللسان . فسأله سيده عن ذلك فقال له : إنه لا أطيب منهما إذا طاب الجسد ، ولا أخبث منهما إذا خبث) .

وقد أثرى بعض حفظة تراثنا اللغوى خزانة هذا التراث العظيم بكتب وضعوها فى (الأمثال) قيدوا بها شوارد اللغة ، لاعن طريق معجمات لغوية للألفاظ ، ولكن عن طريق رصد الأمثال العربية ، وتبويبها وترتيبها بواحد من طرق الترتيب المحتملة ، كالترتيب وفقا لأوائل الكلمات وحروف الهجاء ، أو الترتيب على حسب أبواب المعانى والموضوعات . وقد اتبع (الميدانى) ت ٥١٨ ﻫ طريقة الترتيب على حروف الهجاء ، على حين اتبع الإمام الحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤ ﻫ طريقة تبويب الأمثال على الأبواب التى جعلها سبعين ومائتى باب على سبعين ومائتى معنى من المعانى الدائرة بين الناس ، وأدخل فى كل باب مايمكن أن يندرج تحته من الأمثال ، فاستوى له من ذلك ستة وثمانون وثلاثمائة وألف مثل ، فسر غريب ألفاظها وجلا غامض أسمائها ، وشرحها شرحا واضحا لاخفاء فيه . ولم يكن الإمام القاسم بن سلام السابق إلى الجمع اللغوى لأمثال العرب ، فقد سبقه إلى ذلك أربعة من رجال اللغة ، هم الأصمعى وأبو زيد الأنصارى ت ٢١٥ ﻫ ، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى ت ٢٠٩ ﻫ ، والمفضل صاحب المفضليات ت ١٦٨ ﻫ ، فأفاد منهم ، ونقل عنهم أكثر ماجاء فى كتبهم من الأمثال ، كما أفاد من لغويين لم يؤلفوا فى أمثال العرب ، كالفراء ، والكسائى ، وأبى عمرو الشيبانى ، وابن الكلبى ، ويحيى بن المبارك المتوفى سنة ٢٠٢ ﻫ وغيرهم .

بقى أن نقول إن جماعة من قدماء اللغويين ومحدثيهم قد بذلوا جهدهم فى صيانة تراثنا اللغوى بتنقيته وتخليته مما طرأ عليه من لحن وأوهام وأخطاء . وهذا الجهد السلبى غير الإيجابى هو عمل مقدر مشكور ، وسعى موفق مبرور ، فلولا هؤلاء الراصدون للحن العوام وأخطاء الاستعمال لفشا اللحن فى لغتنا الشريفة فشوا عظيما .

ومن السابقين فى هذا المجال : الكسائى ت ١٨٩ ﻫ ، وابن السكيت ت ٢٢٤ ﻫ فى

كتابه (إصلاح المنطق) ،وأبو حنيفة الدينورى ت ٢٩٠ هـ فى كتابه (لحن العامة) ، وابن خالويه ت ٣٧٠ هـ فى كتابه المشهور : (ليس فى كلام العرب) ، والزبيدى ت ٣٧٩ هـ — فى كتابه (لحن العوام) ، وأبو هلال العسكرى ت ٣٩٥ هـ فى كتابه (لحن الخاصة) ، والحريرى صاحب كتاب المقامات فى (درة الغواص) ، وابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ فى (تقويم اللسان) والخفاجى ت ١٠٦٩ هـ فى كتابه (شفاء الغليل) ، وابن كمال باشا ٩٤٠ هـ فى كتابه (التنبيه على غلط الجاهل والنبيه) . ومن المحدثين الذين ألفوا فى هذا الميدان : الشيخ إبراهيم اليازجى فى (لغة الجرائد) ، وأسعد داغر فى (تذكرة الكاتب) ، ومحمد العدنانى فى (معجم الأخطاء الشائعة) .

سادتى ، زملائى ! تحقيقا للمثل العربى القائل : رب ضارة نافعة ، فإن عدم الفهم لمعانى ألفاظ اللغة ، وكثرة وقوع اللحن حتى ممن لايتصور وقوع اللحن منهم هو الذى دعا إلى الاهتمام بالتأليف فى كتب اللحن وإصلاح المنطق أولا ثم المعجمات بعد ذلك . والشر قد ينتج الخير . . ولعل من طريف حكايات اللحن ماوقع من « أحمد بن عمار » صاحب الأمر فى خلافة المعتصم العباسى ، وكان المعتصم أميا ، على غير ماكان عليه أخواه الأمين والمأمون، فورد على الخليفة كتاب من أحد الولاة وفيه هذه العبارة : (ومطرنا مطرا كثر عنه الكلأ) ، فقال المعتصم لابن عمار : ماالكلأ ؟ فقال : لا أدرى ، فقال المعتصم : إنا لله وإنا إليه راجعون خليفة أمى؟ وكاتب أمى! ! وكانت هذه الحادثة سببا فى عزل ابن عمار ، وتولية محمد بن عبد الملك الزيات مكانه . .

ومن الطريف أيضا أنه كان يقوم دائما الأخذ والرد والشد والجذب بين أصحاب ذلك اللون الأخير من كتب التصحيح اللغوى أو التخطئ اللغوى على السواء ، لتعصب كل واحد لرأيه ، واعتداده بنفسه .

فقد رأينا (الشهاب الخفاجى) فى القديم يرد بكتابه (شرح درة الغواص) على الحريرى ويخالفه فى كثير مما قاله أو أنكره ، بل قد يصوب له فى لغة متعالية . كما رأينا فى الحديث اللغوى (أمين ظاهر خير الله) يرد على الأب أنستاس مارى الكرملى — العضو السابق بمجمعنا القاهرى هذا — فى كتاب قائم بذاته عنوانه : (علم الأب الكرملى ، أو المحجة البيضاء، فى صحة نعت الجموع بفعلاء) فيقسو عليه ، ويسخر منه بمثل قوله فى أحد مواطن الكتاب : (مامن عالم معاصر للأب الكرملى إلا صوب الكرملى إلى صدره سهامه ، وأصلت فوق رأسه حسامه . ويالها من سهام لاتصيب مرمى وأعجب به من حسام من الأسرب — يعنى معدن الرصاص — يتكسر فى يد الجبار !)

وحين كثرت هذه المشاحنات والمشادات اللغوية القاسية بين المشتغلين باللغة العربية فى عصرنا الحديث ، أصاب وابلها بعض الأفاضل من أمثال الشيخ إبراهيم اليازجى العفيف اللسان ، الذى انسحب منها ظافرا بكرامته ، فائزا من الغنيمة بالانسحاب ، قائلا فى أدب كريم ، وخلق عظيم :

ليس الوقيعة من شأنى ، فإن عرضت
أعرضت عنها بوجه بالحياء ندى
إنى أضنُّ بعرضى أن يلم به
غيرى ، فهل أتولى خرقه بيدى؟

وهكذا يكون العلم مع الأخلاق

محمد عبد الغنى حسن
عضو مجمع اللغــة العربية